

## بعض ملامح تنظيم المجال الحضري في قرطبة من خلال كتاب ديوان الأحكام الكبرى لابن سهل

### Urban Space Management in Cordoba

لم تحتل كتب الفتاوى والنوازل موقعاً متميزاً في قائمة مصادر الباحثين الذين اهتموا بدراسة العمران ومظاهر النمو الحضري في بعض مدن الأندلس، على الرغم مما تزخر به من مادة علمية. وقد ارتأينا في هذه الدراسة اعتماد نموذج من تلك الكتب للبحث في موضوع تنظيم المجال الحضري في قرطبة. ووجدنا ضالّتنا في كتاب "ديوان الأحكام الكبرى" لأبي الأصغ عيسى بن سهل (ت. 486هـ) الذي يتضمن مسألّ وفتاوى غنية بمعلومات ومعطيات ذات صلة بالظاهرة الحضريّة تسمح بالحديث عن "مجال حضري" في قرطبة كما يعرفه المختصون بالبحث في الظاهرة الحضريّة.

ونستطيع أن نقول، في ضوء المادة التي أمّدنا بها كتاب "ديوان الأحكام الكبرى"، إنّ جانباً مهماً من التدبّر والعقلانية كان حاضرًا في عملية تنظيم المجال الحضري في قرطبة على الرغم من بعض السلبيات التي شابته، ما يفتد مقولة غياب العقلانية وضعف مستوى تنظيم المجال الحضري (في هذه المدينة، وفي مدن دار الإسلام عامّة) التي روّج لها كثيرًا بعض الباحثين الغربيين.

**كلمات مفتاحية:** منيات، القيروان، فاس، الفتاوى، حومة، الأسواق، الحمامات، الأفران، الزقاق.

Islamic theological works have not traditionally been reliable resources for research on the architecture and urban development of Andalusian cities. In this paper, a number of these books have been used in researching urban planning in Cordoba, particularly Diwan of Grand Judgments by Abi Al-Asbagh Issa bin Sahel (d. 486 of the Hijri Calender), which provides a rich resource on the study of the experience in the medieval cities of Al Andalus. This and similar works reveal various features of Cordoba's urban development, such as the gradual loss of the tribal dimension in urban planning, the importance of spatial centralization, the lack of clear boundaries between private and public property in the communal use of the urban space, and the significance of religion in the organization of residential units. Based on the material in Issa bin Sahel's work, one may conclude that a large amount of planning and rationality was present in the organization of urban space in Cordoba, despite various flaws. This thesis debunks the commonly-held argument, promoted by Western researchers, that rationality was absent and that urban planning was weak in the development of Cordoba and Islamic cities in general.

**Keywords:** gardens, Kairouan, Fes, fatwas, urban quarters, souks, hamams, bakeries, alleys.

\* متخصص بتاريخ أوروبا الوسيط وتاريخ الأندلس. أستاذ تعليم عالٍ مساعد بكلية الآداب والعلوم الإنسانية خلال الفترة 1984 - 2000 بوجدة - المغرب.

Historian of Europe in the Middle Ages, and on Arab-ruled Iberia. From 1984 to 2000, Nakadi was an Assistant Professor of Higher Education at the Faculty of Arts and Humanities in Oujda, Morocco.

## مقدمة

منذ ثمانينيات القرن الماضي، أخذت كتب الفتاوى والنوازل تحتل موقعا متميزاً في قائمة المصادر التي يعتمدها الباحثون في حضارة بلاد المغرب والأندلس وتاريخها. ويعزى ذلك لوفرة ما تقدّمه من مادة علمية لا تتيحها المصادر التقليدية، كالحوليات التاريخية مثلاً.

وقد اعتمدنا على نماذج منها في بحثٍ رامَ الكشف عن جوانب من واقع البداية الأندلسية خلال القرن الخامس الهجري<sup>(1)</sup>. وها نحن نعتمد على نموذج آخر منها في هذه المقالة للحديث عن بعض ملامح تنظيم المجال الحضري في قرطبة. ويتعلق الأمر بكتاب "ديوان الأحكام الكبرى" لابن سهل.

والجدير بالذكر أنّ ثلثة من الباحثين خصّصت قرطبة وحواسر أندلسية أخرى، بدراساتٍ قيّمة<sup>(2)</sup>، تناولت في فصول منها العمران ومظاهر النمو الحضري. وقد اعتمدت في تلك الدراسات على مختلف المصادر المتداولة من كتب تاريخ عام وكتب جغرافيا ورحلات وكتب الأدب، إضافةً إلى خلاصات بعض عمليات التنقيب الأثري، بينما كان اعتمادهم على المصنفات الفقهيّة، بمختلف مشاربها، محدوداً إلى حدٍ ما. وقد شدّد أحدهم في كونه وقف، وهو يسعى إلى تحقيق جملةٍ من فصول كتاب "ديوان الأحكام الكبرى"، على ما يزر به من نصوص ذات صلة بالعمران، فقام باستخراجها وتحقيقتها ونشرها في كتيب مستقل<sup>(3)</sup> أراد من خلاله وضع تلك النصوص رهن إشارة القراء، وتبسيط الضوء على "عاملين حضاريين التحما وساهما في تكوين المدينة العربية الإسلامية"؛ وهما "العامل الروحي والعامل المدني". وفي الاتجاه ذاته، حاول باحثٌ آخر اعتماد بعض المصنفات الفقهيّة لرصد مدى مواكبة التشريع الفقهي في الأندلس التطور العمراني والحضري<sup>(4)</sup>.

ونحن لا نوي، في هذه الدراسة، استحضار مختلف كتب الفقه للحديث عن العمران وعن النمو الحضري في قرطبة. ولكننا سنحاول تبسيط الضوء على جوانب من التنظيم الحضري فيها، كما ذكرنا سابقاً، من خلال مصنف ابن سهل لإبراز بعض خاصيات ذلك التنظيم من جهة، ولتبيان مدى قيمة المصنف المعتمد في دراسة من هذا القبيل، من جهة أخرى.

ولد أبو الأصبح عيسى بن سهل الأسدي الجبالي سنة 413هـ، وتوفي سنة 486هـ. واشتهر بكونه كان أحد كبار القضاة والمفتين في أندلس القرن الخامس الهجري. انتقل بين جيان، مسقط رأسه، وقرطبة وإشبيلية وغرناطة وسبتة وطنجة، فقيهاً مشاوراً ومفتياً وقاضياً. فعده الكثير ممن ترجموا له، ونقلوا لمعاً من أخباره، أمثال ابن الحاج الشهيد (ت. 529هـ) والقاضي عياض السبتي (ت. 544هـ).

1 البحث تحت عنوان: "إسهامات كتب الفتاوى والنوازل في الكشف عن جوانب من واقع البداية الأندلسية في القرن الخامس الهجري"، أسهمنا به في أشغال ندوة في موضوع "النوازل والبحث العلمي"، نظمتها مجموعة البحث في التراث النوازلي بالغرب الإسلامي في كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس- فاس يوم 17 شباط/فبراير 2009. لم يُجر نشر أعمال الندوة المذكورة، ونشر نص البحث يوم 17 كانون الأول/أكتوبر 2010، في موقع المنشاوي للدراسات والبحوث، على الرابط: <http://www.minshawi.com/node/1574>

2 من بينها على سبيل المثال دراسة: عبد العزيز سالم، قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس (دراسة تاريخية، عمرانية، أثرية في العصر الإسلامي)، (الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، 1997)؛ ودراسة أخرى حول مدينة المرية تحت عنوان: تاريخ مدينة المرية الإسلامية قاعدة أسطول الأندلس (الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، 1984)؛ ودراسة: أحمد فكري، قرطبة في العصر الإسلامي: تاريخ وحضارة (الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، 1983)؛ وكمال السيد أبو مصطفى، مالقة الإسلامية في عصر دويلات الطوائف (القرن الخامس الهجري - الحادي عشر الميلادي) دراسة في مظاهر العمران والحياة الاجتماعية (الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، 1993).

3 يتعلق الأمر بكتيب: محمد عبد الوهاب خلاف (محقق)، وثائق في شئون العمران في الأندلس المساجد والدور، مستخرجة من مخطوط الأحكام الكبرى للقاضي إبي الأصبح عيسى بن سهل الأندلسي (القاهرة: المركز العربي، 1983).

4 نغني هنا: أحمد الطاهري، "التشريع الفقهي بالأندلس في مواكبة التطور العمراني والحضري"، في: دراسات ومباحث في تاريخ الأندلس عصري الخلافة والطوائف (الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 1993).

وابن بشكوال (ت. 578هـ)، واحداً من أكبر العارفين بالنوازل، والبصراء بشؤون الأحكام، أَلَّفَ فيها كتابًا مفيدًا اشتهر باسم "الأحكام الكبرى"، عوّل عليه الحكام والعلماء.

قُدِّرَ لهذا الكتاب أن تصلنا منه تسع نسخ، يوجد معظمها في خزانات مغربية، من بينها نسخة محفوظة في قسم المخطوطات في الخزنة العامة في الرباط (تحت رقم ق. 838) أطلعنا عليها، واستقيننا منها مادةً غزيرة استثمرناها في إنجاز أطروحتنا حول "الزراعة في الأندلس خلال القرن الخامس الهجري"<sup>(5)</sup>، وفي إنجاز البحث المشار إليه سابقًا.

وكان للتهامي الأزموري، أحد العلماء المغاربة المحدثين، كسب السبق في التعريف بهذا المخطوط حين نشر أحد أبوابه، وهو "باب في مسائل الاحتساب"، على صفحات عددٍ من مجلة هسبريس تمودا صدر سنة 1973. ثم قام الباحث المصري محمد عبد الوهاب خلاف بنشر مجموعة نصوص منه في ستة كتيبات من القطع المتوسط<sup>(6)</sup> صدرت في الفترة الواقعة بين السنوات 1980 و1985. وبعد هذا التاريخ، قُدِّرَ لمصنّف ابن سهل أن يحظى بمزيد من اهتمام الباحثين الجامعيين العرب. فقد قامت الباحثة السعودية نورة محمد عبد العزيز التويجري بتحقيق قسمٍ أوّل منه في إطار رسالة جامعية لنيل الماجستير، وقسم ثانٍ منه لنيل شهادة الدكتوراه. ونشرت النص الكامل محققًا في كتاب من جزئين سنة 1995 تحت عنوان: "الإعلام بنوازل الأحكام" (عنوان رئيسي)، وتحت عنوان فرعي "المعروف بالأحكام الكبرى". ثم ارتأى الباحث رشيد حميد النعيمي بدوره تحقيقه في إطار أطروحة جامعية لنيل الدكتوراه. ونشره سنة 1997 تحت عنوان: "ديوان الأحكام الكبرى". وقام الباحث محمد حسن إسماعيل بتحقيقه ونشرته مؤسسة دار الكتب العلمية سنة 2005، تحت عنوان رئيسي: "كتاب النوازل والأعلام"، وعنوان فرعي: "المسمى ديوان الأحكام الكبرى". ثم قام الباحث المصري يحيى مراد بتحقيقه ونشره ضمن إصدارات دار الحديث القاهرية سنة 2007 تحت عنوان: "ديوان الأحكام الكبرى أو الإعلام بنوازل الأحكام وقطر من سِير الحكّام".

وتتوزع مادة كتاب ابن سهل على أبواب الفقه المعروفة؛ كباب القضاء والأحكام، وباب الوصايا، وباب الطلاق، وباب البيوع... ويتميز عن غيره من المصنفات النوازلية التي تعود إلى القرن الخامس الهجري، بكون صاحبه يستعرض في كلّ باب ما يتصل به من أحكام، ويفتي في الوقت ذاته في النوازل والمسائل المتصلة بذلك الباب، وقد تضمّن نوازل ومسائل في قضايا ذات صلة بالدور والحوانيت والمساجد والأقربان والحمامات والمقابر والمسالك والمحجّات وغيرها من المنشآت والمرافق التي كانت تقدّم خدمات لسكان قرطبة. وعلى النوال نفسه كان الأمر في غيرها من حواضر الأندلس. وقد وردت أهم تلك النوازل والمسائل ضمن مواد "باب في البيوع"، و"باب الصدقات والهبات"، و"باب مسائل الاحتساب".

كانت الدور والأقربان والحمامات والمساجد، وباقي المرافق، منتشرة في أحياء المدينة. وعرفت تلك الأحياء بالأرباض، إذ ورد فعلاً ذكر أحدها في مصنف ابن سهل باسم "ربض حوانيت الريحاني"<sup>(7)</sup>. وبلغ عددها ما ينيف عن واحد وعشرين ربضاً عند اكتمال نمو

5 صدرت سنة 2007 ضمن منشورات مطبعة الجسور في وجدة.

6 هي كما يلي: وثائق في أحكام القضاء الجنائي في الأندلس (القاهرة: المطبعة العربية الحديثة، 1980)؛ وثائق في أحكام قضاء أهل الذمة في الأندلس (القاهرة: المطبعة العربية الحديثة، 1980)؛ ثلاث وثائق في محاربة الأهواء والبدع في الأندلس (القاهرة: المطبعة العربية الحديثة، 1981)؛ وثائق في الطب الإسلامي ووظيفته في معاونة القضاء في الأندلس (القاهرة: المطبعة العربية الحديثة، 1982)؛ وثائق في شؤون العمران في الأندلس (المساجد والدور)؛ وثائق في شؤون الحسبة في الأندلس (القاهرة: المطبعة العربية الحديثة، 1985).

7 عيسى بن سهل، ديوان الأحكام الكبرى أو الإعلام بنوازل الأحكام وقطر من سير الحكام، يحيى مراد (محقق)، (القاهرة: دار الحديث، 2007)، ص 347. وهي النسخة التي اعتمدها الباحث في إنجاز هذه الورقة.

قرطبة بحسب إفادات بعض الباحثين<sup>(8)</sup>. وتوزعت بين سبعة أرباض في الجهة الشرقية، وتسعة أرباض في الجهة الغربية، وثلاثة أرباض في الجهة الجوفية، وربضين بالجهة القبلية<sup>(9)</sup>. تفيد مصادر القرن الرابع الهجري والدراسات الحديثة بأن تلك الأرباض كانت أهلة بالسكان الذين ارتبط معظمهم بأنشطة حضرية صرفة (سياسية - إدارية، ودينية، واقتصادية، وثقافية). ومن هذا المنطلق، نستطيع أن نتحدث عن مجال حضري في قرطبة، بما أن هذا الأخير، كما يعرفه المختصون في الظاهرة الحضرية، هو "مجموعة متصلة، أو شبه متصلة، من الفضاءات الحضرية المكونة من مساكن ومنشآت دينية واقتصادية ومرافق عامة موجّهة لخدمة السكان وإشباع حاجياتهم وتحقيق رغباتهم المادية والروحية"<sup>(10)</sup>.

وتقتضي الضرورة العلمية توضيح أن التعريف المقترح لا ينص صراحةً على الفضاءات الخضراء التي تحتضنها المدينة، ممثلة في المنتزهات والحدائق العمومية، على الرغم من أن عبارة "شبه متصلة" تسمح بإدراج هذه الفضاءات ضمن المجال الحضري. وكذلك كانت قرطبة، فإن الأرباض التي تألفت منها، لم تكن كلّها منشآت عمرانية متصلة على الرغم من قول بعض الباحثين، نقلاً عن مصنفات جغرافية قديمة، بأن "المباني كانت متصلة بين قرطبة والزهراء والزاهرة"<sup>(11)</sup>. والواقع أن تلك المباني كانت تفصل بين بعضها البعض مجموعة جثات وبساتين يملكها أفراد من العامة ومنايات<sup>(12)</sup> يملكها أفراد الأسرة الحاكمة، أو أفراد من خاصة المجتمع. وقد يحدث أن توجد بمحاذاة دار، جثة محاطة بسور حسبما يتضح من قول ابن سهل: "كتبت إلى شيوخنا في قرطبة سنة 454هـ في موضوع رجل باع داراً تتصل بها جنة محدد عليها وليس لها باب ولا طرق إلا على الدار"<sup>(13)</sup>. وقد يحدث أن توجد بين مجموعة دور، جنة مفتوحة، كما ورد في حديثه عن سوء تفاهم حصل بين رجل اشترى من أخوين "جثة بحاضرة قرطبة بشرفي مدينتها بربض حوانيت الريحاني بحومة مسجد أسلم"<sup>(14)</sup>.

ويمكن أن نستشف، في ضوء هذه المعطيات الأولية، أن الربض كان يمثل فضاء حضرياً، لأنه كان يتألف من مجموعة حومات تضم كلّ واحدة منها عدداً من الدور والحوانيت ومسجداً وفرنّاً، على الأقل، وحماماً. وإضافة إلى ما ذكر، كان بعض من الأرباض الواحد والعشرين يضمّ أسواقاً وقيساريات وورشات الصناعات والحرفيين والقصور الخلاقية والمنايات وعدداً من البساتين والجثات والمقابر. وهذا ما يعطي المجال الحضري في قرطبة شكل لوحة فسيفساء بامتياز.

كان كلّ فضاء من الفضاءات الحضرية، أي كلّ ربض من الأرباض، بمنزلة منصة تقوم فوقها حياة الإنسان، لأنّ أفراد المجتمع هم الذين كانوا يقيمون في المساكن المشيئة فيها. وفيها كانوا يزاولون أنشطة يحصلون منها على معاشهم، وكانوا يمارسون فيها شعائرهم الدينية أيضاً.

8 من بينهم: سالم، ج1، ص 177؛ وفكري، ص 172.

9 لمزيد من التفاصيل بخصوص الأرباض وأسمائها يمكن العودة إلى كتابي: سالم، ص 177 - 180؛ وفكري، ص 169 - 177.

10 انظر في هذا الشأن:

- Yves-Marie Allain & Jean-Pierre Muret & Marie-Lise Sabrié, *Les espaces urbains. Concevoir, réaliser, gérer* (Paris: Les Editions du Moniteur, 1987).

- Bernard Gauthiez, *Espace urbain: Vocabulaire et morphologie* (Paris: Les Editions du Patrimoine, 2003).

11 انظر على سبيل المثال ما يورده: سالم، ج1، ص 175.

12 منيات ومنى، مفردها منية، وهي حيازات كان معظمها في ملكية أفراد الأسر الحاكمة الذين كانوا يحرضون على غراستها بشتى ضروب النباتات والأشجار المثمرة ليس لجني غلاتها في المقام الأول، ولكن لاتخاذها فضاءات للمتعة والترويح عن النفس. وقد انتشر معظمها في قرطبة منذ أن أنشأ عبد الرحمن الداخل "منية الرصافة"، ثم ظهرت نماذج أخرى منها في المدن التي اتخذت قواعد ملك بعد قيام الممالك الطائفية. لمزيد من التفاصيل، انظر كتاب: سالم، ج1، ص 204 - 214؛ وكتاب: يوسف نكادي، *الزراعة في الأندلس خلال القرن الخامس الهجري* (وجدة: مطبعة الجسور، 2007)، ص 148 - 150.

13 ابن سهل، ص 294.

14 المرجع نفسه، ص 347.

وفي جميع الأحوال، كانت عملية الإقامة ومزاولة النشاط تنطوي على عملية تدبير يقوم بها الإنسان قصد تحقيق منفعة خاصة أو عامة. وهذا البعد السوسيو - اقتصادي هو بالذات ما يركّز عليه المهتمون بالظاهرة الحضرية، حين يذهبون إلى التأكيد أنّ عملية تنظيم المجال الحضري هي طريقة تدبير الإنسان ذلك المجال بهدف تحقيق المنفعة<sup>(15)</sup>.

ومن الواضح أنّ عملية التدبير التي تشترك في القيام بها السلطات المشرفة على سير الشأن العام وسائر الأفراد المقيمين في المجال، تنطوي على نوعٍ من الإرادية<sup>(16)</sup> un volontarisme تجد تطبيقاتها في الشكل الذي تنتظم به المساكن والمنشآت العمرانية التي تؤثت المجال الحضري. ومن ثم، تغدو عملية تنظيم المجال الحضري نوعاً من الإسقاط الاجتماعي والثقافي والسياسي لمجتمع من المجتمعات خلال فترة تاريخية معينة. وبعبارة أخرى، فإنّ قيام السلطات وأفراد المجتمع بتنظيم مجال معين، أو تدخلهم لإعادة تشكيل ذلك المجال، من خلال تشييد مساكن ومنشآت وإقامة مرافق، أمر يعكس إلى حدٍ بعيد نوعية وطريقة تصوّر أفراد تلك الجماعة للعالم أو تمثّلها له.

وهذا ما يستفاد من بعض الشواهد النوازلية التي يتضمنها كتاب "ديوان الأحكام الكبرى"، والتي سنعتمدها في استعراض بعض خاصيات المجال الحضري في قرطبة بعد أن تحدّثنا بإيجاز عن مواصفاته العامة.

## أولاً: تلاشي البعد القبلي في تنظيم المجال الحضري

يرى بيير غيشار Pierre Guichard أنّ التعمير في مدينتي القيروان وفاس جرى على أساس انتشار متجاور Une Juxtaposition للقبائل في المجال الحضري في المدينتين. ويعتقد أنّ تكون الظاهرة ذاتها قد تكررت في قرطبة، وفي غيرها من مدائن الأندلس بعد الفتح<sup>(17)</sup>. ومعنى ذلك، من وجهة نظره، أنّ تطابقاً حدث بين تنظيم المجال الحضري والتنظيم القبلي.

ويبدو أنّ بيير غيشار ينطلق بهذا الخصوص من الظروف التي جرت فيها عمليات الاستيطان في الأندلس خلال السنوات التي أعقبت الفتح، ويعمّم ذلك على القرون اللاحقة دون أن يأخذ في الحسبان التطورات التي شهدتها بنية المجتمع والعلاقات الاجتماعية؛ إذ انتهى أحد الباحثين في هذا الشأن إلى خلاصات مفادها أنّ العلاقات القبلية أخذت تشهد نوعاً من التلاشي منذ مطلع القرن الرابع الهجري<sup>(18)</sup>، وبخاصة في الحواضر.

ومما لا شك فيه أنّ المتغيرات والأحداث السياسية التي ظلت تشهدها الأندلس باستمرار منذ القرن المذكور زادت من تلاشي علاقات القرابة؛ إذ تراجع الزواج الداخلي، أي ذلك الذي يجري بين أطراف داخل الجماعة القرابية نفسها، كما شاعت ظاهرة الزواج

15 يمكن العودة في هذا الشأن إلى مؤلف من إنجاز جماعي تحت عنوان:

*L'espace urbain en méthodes* (Marseille, Editions Parenthèses, 2008), p. 6 - 8.

16 يعبر بعض الباحثين الفرنسيين عمّا نذهب إليه بقولهم:

"l'espace urbain engage la mobilité des citoyens".

انظر: Ibid., p9.

17 انظر بحثه:

Pierre Guichard, "Les villes d'al-Andalus et de l'Occident musulman aux premiers siècles de leur histoire. Une hypothèse récente," in: P. Cressier et M. García-Arenal (dir.), *Genèse de la ville islamique en al-Andalus et au Maghreb occidental*, Colloque organisé par la Casa de Velazquez et le Consejo Superior de Investigaciones Científicas (Madrid: éd. De la Casa de Velazquez, 1998), p. 41.

18 نقصد هنا أحمد الطاهري الذي تناول الموضوع في مقالة له تحت عنوان: "المجتمع الأندلسي في عصر الخلافة: انحلال الروابط القبلية والطائفية"، بحوث، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، العدد الأول، (1988)، ص 129 - 158. وقد انتهى الباحث بدوره إلى هذه الخلاصة في بحث حول "الأسرة في البادية الأندلسية خلال القرن الخامس الهجري"، شارك به في ندوة نظمتها مجموعة البحث في تاريخ البادية المغربية في كلية الآداب والعلوم الإنسانية في القنيطرة. وقد صدرت أعمال تلك الندوة بعنوان: *الأسرة البدوية في تاريخ المغرب* (الرباط: منشورات مكتبة دار السلام، 2006).

المختلط بين ذكور وإناث ينحدرون من أصول عرقية ودينية مختلفة. وفي الوقت ذاته، أضحى بإمكان عدد من الأفراد التسري بالجواري والإماء اللاتي لم ينضب معينهنّ إلا بعد توقّف الحملات العسكرية في المعازل المسيحية من شبه جزيرة أيبيريا. وتبعاً لذلك، لم تعد الأسر التي تربط بينها صلات قرابة، تحرص على الإقامة في دور (تجمعات سكنية) متجاورة.

لقد أورد ابن سهل أسماء عدد كبير من الأشخاص عند حديثه عن عمليات بيع دار من الدور التي شكّلت أهمّ معالم الفضاء الحضري في قرطبة، أو شرائها أو تحييسها أو قسمتها، دون ذكر أسماء قبائلهم. كقوله: "كانت لإبراهيم بن محمد دار بحاضرة قرطبة بحومة مسجد الغلباطي"<sup>(19)</sup>. أو قوله، في معرض جوابه عن إحدى النوازل: "... دار ابن أشرس بالربض الشرقي من مدينة قرطبة على نهرها بحومة مسجد ضوء"<sup>(20)</sup>. وفي بعض الحالات يورد اسم الشخص منتسباً إلى حرفة أو مهنة، كقوله في معرض جوابه عن إحدى النوازل: "غاب علي بن أحمد بن سعيد المعروف بابن الخراز"<sup>(21)</sup>. وقوله: "ثبت عند ابن الليث موت مبارك الصياد الذي كانت له دار بحومة باب اليهود في درب ابن عبد الله"<sup>(22)</sup>.

وتؤكد المعطيات التي يتضمنها بعض كتب التراجم هذا الاتجاه. إذ لم يقم واضعو مصنفات ما بعد منتصف القرن الرابع الهجري بربط أسماء الدور، عند الحديث عن المترجم لهم، بأسماء القبائل إلا في حالات نادرة، من قبيل حالة العالم أبي عبد الله محمد بن عيسى بن غانم بن محمد الغساني المعروف بالأندراشي، والذي يذكر ابن بشكوال، وهو يعرف به، أنّ "سكانه بقرطبة بغدير ثعلبة بدور بني ادريس، وصلاته بمسجد ابن إدريس"<sup>(23)</sup>.

ويستفاد من مصنف ابن سهل وغيره من المصنفات النوازلية، ككتاب "الأحكام" لأبي المطرف الشعبي المالقي<sup>(24)</sup>، و"كتاب الفتاوى" لأبي الوليد بن رشد القرطبي<sup>(25)</sup>، أنّ المتغيرات والأحداث السياسية المشار إليها، أفضت إلى حركية في أوساط الأسر القرطبية. وكانت تلك الحركية إرادية أحياناً، ولكنها أضحت قسرية منذ مطلع القرن الخامس الهجري بعد اندلاع ما يعرف بالفتنة سنة 400هـ<sup>(26)</sup>. فحدث أن غادر الحاضرة وأعمالها كثير من السكان، فرادى أو بمعية أفراد أسرهم، وتركوا دوراً وضياً سطا عليها الغير في سياق ظاهرة الغصب التي تفشّت آنذاك<sup>(27)</sup>. وما يهمنا في ما نحن بصدد في هذا المقام، هو أنّ من رحلوا عن قرطبة لم يكونوا يحرسون على الإقامة، في المدن التي التحقوا بها، في حومات يقطن فيها من تربطهم بهم صلات قرابة. وعلى الرغم من أنّ ابن سهل لم يعرض لحالات تنقل أسر بعينها، فقد أورد معلومات كثيرة في أكثر من باب عن حالات "المغيب المتصل" التي كان "أبطالها" بعض أرباب الأسر الذين كانوا

19 ابن سهل، ص 437.

20 المرجع نفسه، ص 543.

21 المرجع نفسه، ص 378.

22 المرجع نفسه، ص 379.

23 أبو القاسم خلف بن عبد الملك ابن بشكوال (ت. 578هـ)، كتاب الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلماهم ومحدثهم وفقهائهم، إبراهيم الأبياري (محقق)، (القاهرة - بيروت: دار الكتاب المصري - دار الكتاب اللبناني، 1989)، ج 2، ص 706، ترجمة رقم 1052. تشير إلى أنّ المترجم له ولد سنة 320هـ ولم يذكر تاريخ وفاته.

24 هو أبو المطرف عبد الرحمن بن قاسم الشعبي المالقي، ولد سنة 420هـ، وتوفي سنة 497هـ. تولى منصبَي الإفتاء والشورى واعتلى خطة قضاء مالقة. اشتهر بوضع كتاب في أحكام الفقه، جرى نشره تحت عنوان: الأحكام للقاضي أبي المطرف عبد الرحمن بن قاسم الشعبي المالقي (ت 497هـ)، الصادق الحلوي (محقق ومقدم)، ط 1 (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1992).

25 هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي المالكي المفتي وقاضي الجماعة الشهير، ولد سنة 450هـ، وتوفي سنة 520هـ، وضع مدونات فقهية كبرى كالبيان والتحصيل والمقدمات المهيدات، كما وضع مؤلفاً في صنف الفتاوى قام بجمع نصوصه وتحقيقها المختار بن الطاهر التليلي ونشره تحت عنوان: فتاوى ابن رشد، المختار بن الطاهر التليلي (محقق)، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1987).

26 لمعرفة المزيد عن طبيعة تلك الفتنة، انظر كتاب: أبو عبد الله محمد بن فتوح الحميدي (ت. 488هـ)، جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس، لجنة إحياء التراث (محقق)، (القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1966)، ص 17 - 36.

27 انظر حالات عن هذه الظاهرة في كتاب: الأحكام للمالقي، ص 166 - 172.

يغادرون أسرهم إلى وجهات لا يعلمها أحد. ويغيبون لمدة قد تصل أحياناً إلى العشرين سنة، تنقطع خلالها أخبارهم تماماً<sup>(28)</sup>. ولا شك في أنّ المغيب المتصل لم يكن يقوم به أرباب الأسر وحدهم، وإنّما كان يرافقهم فيه أفراد أسرهم أيضاً، حسبما يستشف من نازلة أفتى فيها ابن رشد في موضوع "رجل غاب عن مكانه، وترك به داراً خربة". فلمّا طالت غيبته "عمد إليها بعض قرابته وبنائها من ماله"<sup>(29)</sup>. فلو كان رب الدار رحل بمفرده، لما عمد صاحبنا إلى إعادة بنائها من تلقاء نفسه.

ومهما يكن من أمر، فإنّ ما يهمنا في هذا الشأن، هو أنّ الغائبين، فرادى أو بمعية أفراد أسرهم، كانوا يقيمون إبان فترات غيابهم في حواضر في حومات لا يعرفهم فيها أحد، ولذلك كانت تنقطع أخبارهم.

ومن القرائن الدالة أيضاً على تلاشي روابط القرابة، وجود مسائل يتضمنها "كتاب ديوان الأحكام الكبرى" تفيد بأنّ أسراً مسلمة كانت تقيم في دور مجاورة لدور تقييم فيها أسر من أهل الذمة، كما توضح ذلك مسألة تداولها ثلثة من الفقهاء المشاورين، ومن بينهم ابن لبابة<sup>(30)</sup>، في موضوع وكيل يتيم أراد بيع دار يملكها ذلك اليتيم "لقربها من دور اليهود، وحيث تباع الخمر ويجتمع أهل الفساد والشّر"<sup>(31)</sup>. ويؤكد أيضاً الأمر ذاته قول ابن سهل: "ابتدأ القاضي أبو المطرف عبد الرحمن بن سوار قبل وفاته النظر في مسألة طرحها المسمى حسان بن عبد الله الذي كانت له دار بداخل مدينة قرطبة بحومة مسجد صواب تلاصق داراً أخرى موقوفة على شنوغة اليهودي"<sup>(32)</sup>. وقريباً من هذه النازلة، أفتى ابن رشد في موضوع "رجل باع داره من يهودي بحظه من بئر مشتركة" بينهما<sup>(33)</sup>.

## ثانياً: غلبة التمرکز على المجال الحضري

تسمح مجموعة نوازل يتضمنها مصنف ابن سهل بالقول بأنّ المجال الحضري في قرطبة كان يغلب عليه التمرکز بالنظر إلى قرب الوحدات السكنية من المساجد ومن الأسواق ومن المقابر، فضلاً عن وجود جنات في بعض الأرباض بمحاذاة المنازل. ومن بين تلك النوازل، نازلة في موضوع تجار كانوا يؤدون الصلوات في حوائيتهم وبالقرب منها ثلاثة مساجد<sup>(34)</sup>. ونازلة في موضوع عيب اكتشفه رجل في جنة ابتاعها. وتقع الجنة شرقي قرطبة في ريبض حوائيت الريحاني في حومة مسجد أسلم<sup>(35)</sup>. ونازلة في موضوع رجل اشترى عرصة ملاصقة لمقبرة أراد تحبيسها ليدفن فيها من يموت من ولده وأهله. وكان لرجل آخر دار ملاصقة لهذه العرصة<sup>(36)</sup>.

وتؤكد نازلة طرحت على أنظار ابن رشد<sup>(37)</sup> بدورها ظاهرة التمرکز على الرغم من أنّها لا تهتمّ قرطبة. فقد سئل من مدينة باغة التابعة لكورة البيرة، في موضوع ورثة آلت إليهم؛ "دور، وأراضٍ، وجنّات" تقع في إحدى جهات المدينة قاموا باستغلالها فترة من الزمن. وحدث، أيام حكم بني عباد، أن رأى والي تلك الجهة ضمّ ما بعد عن سور المدينة من ممتلكات عقارية إلى المدينة وإحاطتها بسور ثانٍ ليتحصن الناس بسبب

28 انظر على سبيل المثال النماذج الكثيرة التي يتضمنها: "كتاب الأفضية"، في: ديوان الأحكام الكبرى، ص 360 وما بعدها.

29 انظر: فتاوى ابن رشد، السفر الأول، ص 337 - 338.

30 هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن لبابة، كان من كبار الفقهاء الحافظين والعارفين بالأحكام، توفي سنة 314هـ، انظر ترجمته: الحميدي، ص 76.

31 ابن سهل، ص 104.

32 ابن سهل، ص 493.

33 فتاوى ابن رشد، السفر الأول، ص 605 - 606.

34 ابن سهل، ص 543.

35 المرجع نفسه، ص 347.

36 المرجع نفسه، ص 593.

37 انظر نصها في: فتاوى ابن رشد، السفر الأول، ص 305 - 308.

الفتنة. فدخلت تحت السور الجديد إحدى جنات الورثة السابق ذكرهم. فعمد إليها الوالي واقتطع من مساحتها ثلثاً، أو أكثر قليلاً، أنشأ به حوانيت وقيسارية وفرناً جعلها تابعة لبيت مال المسلمين. ثم عمد الورثة بدورهم، فقسموا ما تبقى من الجنة عراضاً باعوها لمن ابتنوا بها دوراً. وتفصح كتب التراجم هي الأخرى عن ظاهرة التمرکز، حين يرد في معرض التعريف ببعض العلماء، قول مؤلف أحد تلك الكتب بأن فلاناً كان "سكناه بمقبرة كذا". كقول ابن بشكوال في التعريف بأحمد بن وليد بن هشام بن أبي المفوز (ت. 399هـ): "كان سكناه بمقبرة أبي العباس الوزير بزقاق الشبلاري"<sup>(38)</sup>. وكان يجاوره في سكنى المقبرة ذاتها العالم أبو محمد عبد الله بن سعيد بن خيرون بن محارب (ت. 403هـ)<sup>(39)</sup>.

ومما لا شك فيه، أن هذا التمرکز ينسجم مع مقاصد تنظيم المجال الحضري التي كانت تروم خدمة الفرد والجماعة التي تقيم في ذلك المجال. وكانت تلك الخدمة تسري خلال فترة حياة الفرد والجماعة، وكذلك عند الوفاة وبعدها، حيث يوارى المتوفون الثرى في مقابر مجاورة للتجمعات السكنية. وتظل الصلات قائمة بينهم وبين أقربائهم من الأحياء الذين يستطيعون زيارة مقابرهم بانتظام بحكم قربها من الحومات. غير أن اختلافات كانت تترتب عن هذا التمرکز. وكان يزيد من حدتها سوء التدبير بوجه عام، وسلوك بعض الجماعات والأفراد بوجه خاص، حسبما يتضح من مجموعة نوازل ومسائل بت فيها ابن سهل؛ مقبرة "متعة" المحاذية لبعض الوحدات السكنية لم تعد، في وقت من الأوقات، تحظى بالحرمة حين استحدث فيها مسلک فصلها إلى قسمين، أصبح يسلكه الراجلون وكذلك العربات<sup>(40)</sup>. وحدث أيضاً أن استحدثت مسالك في مقابر أخرى أخذ يسلكها أهل الذمة وهم متجهون بجنازتهم إلى مقابرهم، غير مكترئين بحرمة الموتى من المسلمين<sup>(41)</sup>.

ومن المظاهر السلبية الأخرى التي ترتبت عن ظاهرة التمرکز، ظاهرة وجود بعض قنوات تصريف المياه العادمة من الأحياء السكنية كانت تصب حمولتها في بعض المقابر، كما تفصح عن ذلك مسألة أوردها ابن سهل في موضوع الضرر الذي لحق بمقبرة "عامر"، وبالطريق المفضية إليها، بسبب تدفق مياه الدور، ومياه أحد الحمامات في المقبرة وتجمعها في إحدى الحفر<sup>(42)</sup>. وتفيد المسألة ذاتها، بأن عدداً من الحمامات والأفران كان يقع بمحاذاة الدور، مما كان يلحق ضرراً بسكانها. كما هو الشأن بالنسبة إلى "دار ابن أشرس وهي دار كبيرة تقع بحومة مسجد ضوء بمحاذاة حمام أبدون"<sup>(43)</sup>. ودار المدعو عمر التي كان يقع بجوارها فرن أضر بصاحبها. فأقرّ شهود حدوث الضرر الذي كان يقضي بوجوب هدم الفرن<sup>(44)</sup>.

## ثالثاً: عدم وجود حدود واضحة بين الملك الخاص والملك العام في الاستعمالات الاجتماعية للمجال الحضري

يميز المهتمون بالظاهرة الحضرية بين المجال الخاص والمجال العام، أو العمومي. وتطلق العبارة الأولى على كل منشأة، وكلّ فضاء مكشوف داخل منشأة تدخل ضمن الممتلكات الخاصة للأفراد. وبما أن الشريعة الإسلامية أقرت حق التملك، فقد كان كثير من الدور والأفران والحمامات والدكاكين، ومنشآت أخرى، يدخل ضمن ممتلكات أفراد خواص، أما عبارة "المجال العمومي"، فهي ذات دلالة غربية في المقام الأول، وتحيل عادةً، عند استعمالها، إلى "الأغورا" agora في المدينة الإغريقية، أو الساحة أو الميدان في

38 ابن بشكوال، ج1، ص 44، ترجمة رقم 22.

39 المرجع نفسه، ج2، ص 400، ترجمة رقم 579.

40 المرجع نفسه، ص 626 - 627.

41 المرجع نفسه، ص 626 - 627.

42 المرجع نفسه، ص 665 - 666.

43 المرجع نفسه، ص 543.

44 ابن سهل، ص 664.



المدن المعاصرة<sup>(45)</sup>. وهي فضاءات شاسعة مكشوفة دائرية أو مربعة أو مستطيلة تحيط بها منشآت عمرانية. وقد اتسع نطاق استعمال عبارة "المجال العمومي" في أبحاث المهتمين بالمدن والعمران، فأصبحت تطلق اليوم على كل فضاء أو منشأة لا تدخل ضمن الممتلكات الخاصة للأفراد، مثل البنايات الموجهة لخدمة عموم السكان وشبكة طرق المواصلات والمنتزهات وأرصفت الشوارع.

ومن هذا المنطلق، يمكن تعداد المساجد والأسواق والمنتزهات والمحجّات والمسالك الطرقية التي كانت تشكّل جانبًا من الفضاءات الحضرية في مدن الأندلس، ضمن المجال العمومي، لا حق للأفراد فيها سوى حق الانتفاع المادي والروحي.

ويتضح أنّ المعلومات القليلة التي أوردها ابن سهل عمّا نسميه بالمجال العمومي اقتترنت بحديث عن المسالك والطرق. وهو ما عبّر عنه، على غرار جمهور الفقهاء، بقوله اقتضابًا "الطريق العامة"<sup>(46)</sup>، أو بقوله إسهابًا: "إنما السكك من جهة الأحباس التي حبسها المسلمون لمنافعهم"<sup>(47)</sup>.

ونفهم أبعاد هذا التركيز على المسالك والطرق، إذا علمنا أنّها مثّلت موضوع رهان في العلاقة بين ما هو خاص وما هو عام. وتجلّى هذا الرهان في أنّ بعض الأفراد كانوا يستغلون نفوذهم، وكان آخرون يستغلون عدم وجود فواصل واضحة في أذهان عموم الناس بين الخاص والعام، فيتطاولون على الطرق لاقتطاع أجزاء منها وضمّنها إلى ممتلكاتهم الخاصة، كما فعل المدعوّ سعيد بن محمد بن السليم الذي تطاول على جزء من محجة بقرطبة وضمّنه إلى جنته. فأفتى ابن سهل، حين طرحت عليه المسألة، بأنّ العملية غير جائزة، وعلى المعنيّ بالأمر العدول عمّا قام به<sup>(48)</sup>. وأوضح بالمناسبة أنّ الانتقاص من المحجة أو السكة لتوسعة دار، أو للزيادة في مساحة بستان، أمر غير جائز<sup>(49)</sup>.

وعلى الرغم من أنّ عملاً من هذا القبيل كان موضوع اختلاف بين الفقهاء، بين قائل بجوازه وقائل بعدم جوازه بالنظر إلى حجم المساحة المنتقصة، وضيق المسلك الذي تمّ منه الانتقاص أو رحابته، فقد ضمّ ابن سهل صوته إلى الغالبية العظمى من الفقهاء الذين شجّبوا، منذ القرون الإسلامية الأولى، كلّ تجاوز كان يلحق بـ "الملك العمومي" اقتداءً بما قام به الخليفة عمر بن الخطاب حين أمر بهدم كبير وضعه حدّاد في الفضاء الذي يتسوق فيه عموم الناس<sup>(50)</sup>.

## رابعًا: حضور مهمّ للقيم في انتظام الوحدات السكنية

تتشترك الوحدات السكنية في قرطبة، وفي غيرها من مدن الأندلس ومدن دار الإسلام بصورة عامة، في كون الدور فيها كانت موزّعة على أحياء. ذكر ابن سهل الواحد منها باسم "الحومة". وأورد أسماء الكثير من حومات قرطبة مقترنة باسم المسجد الذي يؤمّه سكانها.

45 لمزيد من التفاصيل بخصوص هذا الموضوع، يمكن العودة إلى كتاب من تأليف جماعي صدر تحت إشراف جون-ليفتوسان Jean-Yves Toussaint ومنيك زيرمان Monique Zimmermann تحت عنوان:

*User, observer, programmer et fabriquer l'espace public* (Lausanne, Presses Polytechniques et Universitaires romandes, 2001), pp. 17 - 31.

46 ابن سهل، ص 635.

47 المرجع نفسه.

48 المرجع نفسه، ص 634.

49 المرجع نفسه، ص 635.

50 انظر في هذا الشأن ما أورده أبو الوليد محمد بن رشد عند حديثه عن "مسألة رجل يزيد في داره من طريق المسلمين ذراعاً أو ذراعين"، "كتاب السلطان"، في: **البيان والتحصيل في المسائل المستخرجة من الأسمعة المعروفة بالعنبيّة**، أحمد الجبالي (محقق)، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1988)، ج 9، ص 407؛ لا بأس من الإشارة إلى أنّ بعض المصنفات تتضمن رواية مفادها أنّ الخليفة عمر رضي الله عنه "ضرب الكبير برجله حتى هدمه"، انظر هذه الرواية في كتاب: الإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت. 852هـ)، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، عبد العزيز بن عبد الله بن باز (محقق)، (بيروت: دار المعرفة، د.ت)، ج 4، ص 88.

ومن بينها " حومة مسجد البلنسي برحبة أبان" (51)، و" حومة مسجد عبادل" (52)، و" حومة مسجد أسلم" (53)، و" حومة مسجد صواب" (54)، و" حومة مسجد أبي رباح" (55).

ويستفاد من مصنف ابن سهل أنّ الحومات كانت تخترقها شبكة من الأزقة، بعضها رئيس وبعضها فرعي، وبعضها أزقة من دون منافذ. وكانت تصطف على يمين كل زقاق ويساره مجموعة من الدور. وفي بعض الأزقة كان يفصل بين الدور فرن أو حمام.

ويتضح أنّ الأزقة الفرعية والأزقة المغلقة في الحومة لم يكن يسلكها إلا القاطنون في الدور الواقعة في تلك الأزقة. وقلما كان يسلك الزقاق الفرعي "أجانب"، إلا في حالة وجود حانوت، أو أكثر، ملاصق للدور يعرض صاحبه مواد غذائية أو بضائع أخرى حسبما يتضح من إحدى النوازل التي ورد فيها قول ابن سهل: "باع أحدهم دارا ينتظم بها حانوت له باب يفضي إلى الدار وباب آخر ينجز عليه" (56).

ويبدو أنّ الحومات كانت مجمعات سكنية مخصصة للإقامة في المقام الأول، ولذلك كانت الدور التي تؤلفها مغلقة على الخارج ومنفتحة على فضاء بداخلها، أي فناء Patio. ولم تكن لمعظمها نوافذ في الواجهات المقابلة للأزقة باستثناء الباب الرئيس للمنزل.

وقد استند نفر من الباحثين الغربيين إلى هذا المعطى، وإلى غيره من المعطيات، كضيق الأزقة، ووجود بعضها من دون منافذ، للقول بضعف مستوى تنظيم المجال الحضري في المدن الأندلسية، ومدن العالم الإسلامي بوجه عام (57).

وإذا كان هذا الموقف يُظهر فعلاً حقيقة تاريخية، فالراجح أنه ينطوي على كثير من الغلو، لأنّ العودة إلى بعض النصوص تفيد بأنّ جانباً كبيراً من العقلانية والتدبر كان حاضراً في عملية تنظيم المجال الحضري. ويكفي أن نورد في هذا السياق نصّاً بالغ الدلالة يتضمّن كتاب "الأندلس في اقتباس الأنوار" (58) يذكر واضعه بوضوح تام أنّ قرطبة "أم المدائن تقع على نهر كبير شيدت عليه قنطرة عظيمة حصينة من أجل البنيان قدرا وأعظمه خطرا. وهي من الجامع، المشهور أمره والشائع ذكره، في قلبته وبالقرب منه. فانتظم بها الشكل إلى الشكل. وجاءت كالفرع لذلك الأصل" (59).

ونستطيع أن نستشف من العبارتين الأخيرتين اللتين يتضمنهما النص أنّ تشييد هاتين المعلمتين جرى وفقاً لتخطيط Un Tracé مسبق. ولا شك في أنّ المنشآت والمرافق الأخرى التي أثّرت فضاء قرطبة اندرجت ضمن هذا التخطيط، ومن بين تلك المنشآت والمرافق "حوانيت ابتناها السلطان، كما يذكر ابن سهل، واكتراها الناس منه لتجارتهم. وبالقرب من هذه الحوانيت ثلاثة مساجد" (60).

51 ابن سهل، ص 234.

52 المرجع نفسه، ص 345.

53 المرجع نفسه، ص 347.

54 المرجع نفسه، ص 493.

55 المرجع نفسه، ص 648.

56 المرجع نفسه، ص 894.

57 من بين هؤلاء الباحثين فليب بانيراى وجون - بيير باراكي Jean-Pierre Barraqué، وقد عبّر بانيراى Philippe Panerai عن وجهة النظر المشار إليها في مقالة كتبها تحت عنوان: Philippe Panerai, "Sur la notion de ville islamique", *Peuples méditerranéens*, No 46, (1989), pp.13 - 30.

أما باراكي فعبر عن وجهة النظر ذاتها في كتابه:

Jean-Pierre Barraqué, *Saragosse à la fin du Moyen Age. Une ville sous influence*, (Paris, l'Harmattan, 1998), pp. 55, 56.

58 هو واحد من بين كتابين وضعهما أبو محمد عبد الله بن علي الرشايطي (ت. 542هـ)، وأبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن بن الخراط الإشبيلي (ت. 581هـ). وقد قام بتحقيق الكتابين والتقديم لهما إميليو مولينا لوبيث Emilio Molina López وخانتو بوسك بيلا Jacinto Bosch Villa وأصدرهما في مؤلف واحد تحت عنوان: الأندلس في اقتباس الأنوار وفي اختصار اقتباس الأنوار، إميليو مولينا وخانتينو بوسك بيلا (محققان)، (مدريد: منشورات المجلس الأعلى للأبحاث العلمية ومعهد التعاون مع العالم العربي، 1990).

59 المرجع نفسه، ص 76.

60 ابن سهل، ص 604.

ويعزز ما ذكرناه عن حضور جانب من العقلانية والتدبر نصُّ ثانٍ يتضمنه كتاب "اختصار اقتباس الأنوار"، ذكر فيه مؤلفه، في سياق حديثه عن مدينة الزهراء، أنها مدينة بالقرب من قرطبة، "بناها عبد الرحمن الناصر. وكانت من عجائب المباني جمالا وقوة وحسن ترتيب وإتقان هيئة" (61).

ومهما يكن من أمر، فإذا كان ضيق الأزقة، ووجود بعضها من دون منافذ وكذا انغلاق الدور، من بين الأمور التي تمثل أحد المظاهر السلبيه في عملية تنظيم المجال الحضري، فلا بد من التذكير بأن الباحثين الغربيين يتناسون هنا أيضًا مسألة مهمة، وهي أنّ المجال المسكون كان منتظمًا انتظامًا يتوافق مع نمط حياة الأسر الذي كان يقوم على مجموعة قيم تتمثل بحرمه الذات وحرمة المكان، فضلًا عن الحميمية والوقار وارتفاع الجار بالجار. وهي قيم يمكن عدّها بمنزلة مبادئ كانت تحكم العمران والتساكن في المدن الأندلسية، ومدن دار الإسلام عمومًا.

تضمّن مصنف ابن سهل صورَ هذه القيم وتجلياتها في مجموعة نوازل ومسائل بتّ فيها؛ من قبيل نازلة في موضوع رجل ذكر أنّ في دار جارتها غرفة لها باب تخرج منه إلى سقيفة تجلس فيها، وأنّ الصاعد إلى السقيفة يطّلع على ما في قاعة داره، وأنّ في ذلك ضررًا عليه (62). ونازلة ثانية في موضوع رجل يملك دارًا في حومة مسجد رباح اشتكى من جارتها لإحداثها درجًا تصعد عليه إلى غرفة لها، فرأى أنّ إحداث الدرج يضر بالحائط الفاصل بين مسكنيهما (63). ونازلة ثالثة في موضوع خلاف بين رجلين، قام أحدهما ببناء جدار فوق حائط جاره. فرفع هذا الأخير تظلمه بدعوى عدم جواز هذا الفعل الذي ينم عن نوعٍ من التعدي على حقوق الغير (64). وقريبًا من هذه النازلة، أثار ابن سهل مسائل تتصل بالرفوف الواقعة على الحيطان بين الجيران، كاتب في شأنها شيوخ قرطبة قصد الاستشارة. ويتضح من فحوى هذه النوازل، ومن فحوى نوازل مماثلة أفتى فيها ابن رشد (65)، أنّ مبدأي التساكن وارتفاع الجار بالجار كانا يقضيان بأن يتمتع مالك دار عن إقامة رفٍ على حائطه يضع عليه شيئًا من القصب أو ما شابه ذلك. كما يقضي المبدأ بأن يتمتع الجار عن الزيادة في علو جدار فاصل بينه وبين جاره، لئلا يمنع عنه الهواء وأشعة الشمس والضوء لأنّها تأتي من السماء التي ليست ملكًا لأحد (66). كما يتمتع المالك عن إقامة رحي داخل داره لكونها تُحدث صوتًا يزعج الجيران.

## خاتمة

لا بأس من التذكير في ختام هذه الصفحات أنّ قرطبة كانت تمثل في عصر الخلافة أكبر مركز حضري في شبه جزيرة أيبيريا خلال فترة الوجود العربي الإسلامي فيها. كان ذلك المركز كثيف السكان حتى مطلع القرن الخامس الهجري. وكان يضمّ مجموعات كبرى من الدور والمنشآت والمرافق المدنية والدينية والاقتصادية دارت حولها مسائل نظّر فيها ثلة من الفقهاء من بينهم ابن سهل. وتسمح المعطيات التي تتضمنها المسائل التي بتّ فيها ابن سهل بالحديث عن مجال حضري كما يعرفه الباحثون المعاصرون اليوم. كما تسمح باستعراض بعض خاصيات تنظيمه.

61 اختصار اقتباس الأنوار، (وهو الكتاب الثاني من مؤلف الأندلس في اقتباس الأنوار وفي اختصار اقتباس الأنوار) ص 145.

62 ابن سهل، ص 662.

63 المرجع نفسه، ص 648 - 650.

64 المرجع نفسه، ص 650 وص 658.

65 انظر على سبيل المثال السؤال الموجه له في موضوع رجل يملك دارين، باع إحداهما لرجل آخر واشترط عليه عدم رفع الحائط الفاصل بين الدارين، مخافة أن يمنع عنه دخول النور وأشعة الشمس. فأجاب ابن رشد بجواز البيع ولزومية الشرط، انظر: الفتاوى، السفر الثالث، ص 1603.

66 انظر: ابن سهل، ص 652 - 654 وص 660.

وقد فوجئنا بغزارة تلك المعطيات التي يقلّ نظيرها في المؤلفات النوازلية التي وُضعت إبان فترة إنجاز كتاب "ديوان الأحكام الكبرى"، أو بعده بقليل، بما فيها "فتاوى ابن رشد" الذي تتألف النسخة المتداولة منه من ثلاثة أسفار. ولا تنحصر هذه الغزارة في الموضوع الذي تناولناه في هذه المقالة، بل تهتم أيضاً بمواضيع أخرى من قبيل موضوع "الجريمة والعقاب" الذي نوشك أن ننهي بحثاً مطولاً يهيمه. فقد أمدنا كتاب "ديوان الأحكام الكبرى" بفيض من المعلومات حول الجرائم التي كانت أكثر انتشاراً في الأندلس خلال القرن الخامس الهجري، وبالعقوبات التي كانت تسلط على مرتكبيها. ولا شك في أنّ هذه الوفرة التي تهتم قضايا متنوعة، هي التي حدت بالباحث محمد عبد الوهاب خلاف إلى تبني المعيار الموضوعاتي في نشر النصوص التي استخرجها من هذا الكتاب.

ولكن الملاحظة التي تسترعي الانتباه في هذا المقام، هي أنّ ما يتضمنه من معطيات تتصل بالمجال الحضري، ينطبق على النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، وليس على القرن الموالي الذي عاش خلاله ابن سهل ما ينيف عن السبعين عامًا، على أساس أنّها لا تعرض للتحوّلات التي طرأت على المجال الحضري في قرطبة بعد اندلاع أحداث الفتنة سنة 400هـ.

ومن المفيد التذكير بأنّ تلك الأحداث كان لها وقعٌ على العمران تحدّث عن مظاهره عدّد من الشهود على العصر، وأبرزهم ابن حزم الذي يذكر ما نصّه: "أخبرني بعض الوراد من قرطبة - وقد استخبرته عنها - أنه رأى دورنا ببلاط مغيث في الجانب الغربي منها [أي من مدينة قرطبة] وقد أمحت رسومها، وطمست أعلامها (...). وصارت صحاري مجدبة بعد العمران، وفيافي موحشة بعد الأئس" (67). ويبدو أنّ ابن حزم لم يبالغ في ما ذهب إليه. فقد أكد صحة الخراب الذي تعرضت له قرطبة بعض المؤرخين المعاصرين؛ كالسيد عبد العزيز سالم الذي وسمه "بالدثور والنكبة"، وخصّه بصفحاتٍ مطولة ضمن الجزء الثاني من كتابه حول قرطبة (68).

67 انظر النص في: "طوق الحمامة في الألفة والألاف"، في: رسائل ابن حزم الأندلسي (ت. 470هـ)، إحسان عباس (محقق)، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1980 - 1983)، ج1، ص 227.

68 انظر: سالم، ج2، ص 109 - 125 وص 141 - 143.

## قائمة المصادر والمراجع

### المراجع العربية

- ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك (ت. 578هـ). **كتاب الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم**، إبراهيم الأبياري (محقق)، القاهرة/ بيروت: دار الكتاب المصري - دار الكتاب اللبناني، 1989.
- ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي (ت. 456هـ). **رسائل ابن حزم**، إحسان عباس (محقق)، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1980 - 1983.
- ابن رشد، أبو الوليد محمد بن أحمد القرطبي (ت. 520هـ). **فتاوى ابن رشد**، المختار بن الطاهر التليبي (مقدم ومحقق)، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1987.
- ابن سهل، أبو الأصبغ عيسى بن عبد الله الأسدي (ت. 486هـ)، **ديوان الأحكام الكبرى**، أو **الإعلام بنوازل الأحكام وقطر من سير الحكام**، يحيى مراد (محقق)، القاهرة: دار الحديث، 2007.
- الحميدي، أبو عبد الله محمد بن فتوح الأزدي (ت. 488هـ). **جدوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس**، لجنة إحياء التراث (محقق)، القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1966.
- الرشاطي، أبو محمد عبد الله بن علي (ت. 542هـ)، ابن الخراط الإشبيلي، أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن (ت. 581هـ). **الأندلس في اقتباس الأنوار وفي اختصار اقتباس الأنوار**، إميليو مولينا لوبيث وخانتو بوسك بيلا (مقدم ومحقق)، مدريد: المجلس الأعلى للأبحاث العلمية ومعهد التعاون مع العالم العربي، 1990.
- الشعبي المالقي، أبو المطرف عبد الرحمن بن قاسم (ت. 497هـ). **الأحكام**، الصادق الحلوي (محقق ومقدم)، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1992.
- الطاهري، أحمد. "المجتمع الأندلسي في عصر الخلافة: انحلال الروابط القبلية والطائفية"، **بحوث**، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، العدد الأول، (1988).
- الطاهري، أحمد. **دراسات ومباحث في تاريخ الأندلس (عصري الخلافة والطوائف)**، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 1993.
- سالم، السيد عبد العزيز. **قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس (دراسة تاريخية، عمرانية، أثرية في العصر الإسلامي)**، الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، 1997.
- فكري، أحمد. **قرطبة في العصر الإسلامي (تاريخ وحضارة)**، الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، 1983.
- نكادي، يوسف. **الزراعة في الأندلس خلال القرن الخامس الهجري**، وجدة: مطبعة الجسور، 2007.

### المراجع الأجنبية

- Allain Yves-Marie et autres. *Les espaces urbains. Concevoir, réaliser, gérer*, Paris: Les Editions du Moniteur, 1987.
- Barraqué, Jean-Pierre. *Saragosse à la fin du Moyen Age. Une ville sous influence*, Paris: l'Harmattan, 1998.
- Gauthiez, Bernard. *Espace urbain: Vocabulaire et morphologie*, Paris: Les Editions du Patrimoine, 2003.

- Grosjean, Michèle & Thibaud, Jean (dir.). *L'espace urbain en méthodes*, Marseille: Editions Parenthèses, 2008.
- Guichard, Pierre. *Genèse de la ville islamique en al-Andalus et au Maghreb occidental*, Colloque organisé par la Casa de Velazquez et le Consejo Superior de Investigaciones Cientificas, Madrid: éd. De la Casa de Velazquez, 1998.
- Panerai, Philippe. "Sur la notion de ville islamique", *Peuples méditerranéens*, No 46, (1989).
- Toussaint, Jean-Yves & Zimmermann, Monique (dir.). *User, observer, programmer et fabriquer l'espace public*, Lausanne: Presses Polytechniques et Universitaires romandes, 2001.